د. صلاح الدين
المنجـــد
● لبنان ●

في هذه المناسبة الثمينة التي يجتمع فيها نخبة من علماء العرب مع نخبة من علماء الاستشراق الالمان ، ارى من المفيد ان اتكلم عن مـــزايا الاستشراق الالماني وماقدمه للعرب في الماضي ، والطرق التي ينبغي اتباعها اذا اراد ان يكون له مستقبل زاهر .

الاســـتشــراق الألمــانى في ماضيـه ومستقبـله

اتيح لي أن أكون صديقا لعدد كبير من المستشرقين الالمان منذ ثلاثين سنة . وعرفت معظمهم شخصيا : شيوخهم وشبابهم . وكانت لي معهم مراسلات مهمة جدا . وزرت بعض جامعـــات المانية القيت فيها محاضرات مختلفة ، واطلعت على كثير من دراسات المستشرقين الالمان ، ونقلت بعضها الى العربية في كتابي « المنتقى من دراسات المستشرقين » .

يذكر الاستاذ البرت ديتريش أن أول محاولة في المانيا لتدريس اللغة العربية كانت من قبل كريستمان المتوفى سنة ١٦١٣ م . فقـــد الف كتيبا لتعليم كتابة الحروف العربية ، بل انه أعد بنفسه للمطبعـــة الحروف العربية في قوالب الخشب .

لكن الرائد الاول الذي وقف حياته كلها على دراسة اللغـــة والحضارة الاسلامية هو رايسكه المتوفى سنة ١٧٧٤ . وتتابع بعد ذلك المستشرقون حتى كان القرن التاسع عشر عصر ازدهار وانتـــاج خصب للاستشراق الالماني . وما زال كذلك حتى الحرب العالمية الثانيـــة ، فأصيب بالضعف والبطء في الانتاج .

اختص الاستشراق الالماني ، في رأيي ، بمزايا واضحة هي :

١ ــ لم يخضع لغـــايات سياسية أو استعمارية او دينية ، كالاستشراق في بلدان اوربية اخرى .. فالمانيا لم يتح لها ان تستعمر البلاد العربية أو الاسلامية ، ولم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق ، لذلك لم تؤثر هذه الاهداف في دراسات المستشرقين الالمـــان وظلت محافظة على التجرد ، غالبا ، والروح العلمية .



زيجريد هونكه : مفكرة وفيلسوفة ألمانية ..

٢ ـ لم تكن دراسات المستشرقين الالمان عن العرب والحضارة الاسلامية ، متصفة ـ على الاغلب ـ بروح عدائية ـ نعم لقد وجد بعض المستشرقين الذين اتوا بآراء لا توافق العرب والمسلمين ، أو بآراء خاطئة تماما ، كبعض اراء نولدكه عن الشعر الجاهلى والقران ـ لكن مثل هذه الاراء معدودة ، ومعظم دراسات الالمان تتصف بالتجرد والموضوعية • فالاستشراق الالمانى لم يخرج مستشرقا تعمد العداء والتشويه فى دراساته • بل بالعكس رافقت دراساتهم روح اعجاب وتقدير وحب وانصاف •

تجد هذه الروح عند رايسكه ، الذى سمى نفسه « شهيد الادب العربى » ونجدها عند جورج جاكوب فى كتابه « أثر الشرق فى العصر الوسيط » ونجدها عند زيجريد هونكه فى كتابها « شمس الله تسطع على الغرب » وتجدها بين المعاصرين عند شبولر وغيره • بل ان بعضهم أسلم حبا بالعربية والاسلام مثل ريشر ، وسمى نفسه عثمان • وبعضهم اتخذ لنفسه اسما عربيا مثل اوجست ملر ـ الذى نشر طبقات الاطباء لابن أبى اصيبعة ـ فقد سمى نفسه « امرؤ القيس بن الطحان » وكان هذا ترجمة لاسمه الالمانى •

وقد نال بعضهم المتاعب والاذى فى سبيل العربية • ان رايسكه مات مسلولا بعد انصرافه الطويل الى اللغة العربية ، وان وستنفلد كف بصره من كثرة البحث والعمل على نشر النصوص العربية طول ستين سنة • وبعضهم كان ينشر النصوص العربية التى يحققها على نفقته رغم فقره • فقد طبع رايسكه الجزء الاول من تاريخ أبى الفداء سنة

١٧٥٤ على نفقته ،ولم يبع منه غير ثلاثين نسخة ، وطبع كذلك لامية الطغرائي ، بالعربية مع ترجمتها الى اللاتينية فباع منها مائة نسخة .

٢ ـ هاتان الصفتان السابقتان اتاحتا للاستشراق الالماني أن يقدم للعرب والمسلمين خدمات واسعة ، وخاصة في الميادين الاتية :

١ ـ نشر النصوص القديمة :

لقد ظهرت النصوص العربية القديمة محققة بعناية الالمان منذ القرن الثامن عشر . وكان رايسكه أول من نشر معلقة طرفة بشرح ابن النحاس مع ترجمتها الى اللاتينية عام ١٧٤٢ . ثم ازدهر نشر النصوص في القرن التاسع عشر . فنشر الالمان مئات ومئات من نصوصنا القديمة الاساسية. ويكاد معظم الشعر العربي القديم، الجاهلي والاسلامي ، قد نشره الالمان الى جانب أمهات كتب اللغة والتاريخ والجغرافية والحساب والجبر والفلك والفرق والطب والفلسفة .

ان مجموع ما نشره الالمان من النصوص القديمة يفوق ما نشره المستشرقون الفرنسيون والانجليز معا . ومن المؤسف ان احـــدا من المستشرقين الالمان لم يضــــع مسردا لجميع النصوص التي نشرها المستشرقون الالمان . فهذا مهم ومفيد . وقـــد ضرب بعض المستشرقين الالمان مثالا نادرا في نشر النصوص مثل وستنفلد الذي نشر وحده ما يعجز مجمع علمي عن نشره .

فقد نشر معجم البلدان لياقوت ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وطبقات الحفاظ للذهبي ، وتهذيب الاسماء للنووي والاشـــتقاق لابن دريد ، وتواريخ مكة للازرقي،والفاكهي ، والفاسي ، وابن ظهيرة ،وسيرة ابن هشام ومعجم ما استعجم للبكري . وغيرها .

وكل ما نشر كان من الكتب الضخمة الصعبة والاساسية . وقد زادت مؤلفات وستنفلد على المائتين .

ونشر فلوجل فهرس ابن النديم ، عمل فيه خمسة وعشرين عاما وقضى في نشر كشف الظنون ثلاثة عشر عاما .

ونشر سخاو الكثير من مؤلفات البيروني الرائعة .

ونشر برجستراسرويرتسل مجموعة نادرة من النصوص القرانية ، ورعيا معهد بحوث القران في جامعة ميونيخ لكن هدم هذا المعهد واتلف كل ما كان فيه ، أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد نشرا نصـــوصا قرانية مهمة جدا . منها التيسير في القراءات السبع ، والمقنع في رسم مصاحف أهل الامصار ، ومختصر الشواذ لابن خالويه ، والمحتسب لابن جني ، وطبقات القراء لابن الجزري ، ومعاني القران للفراء ، والايضاح للانباري .

ومما يذكر عن برجستراسر المتوفى سنة ١٩٣٣ انه جاء الى القاهرة واستمع الى مقريء للقرآن ودون انغامه بالنوته ٠

ولا بد أن نذكر هنا المكتبة الاسلامية التى اسسها العلامة الكبير الاستاذ ريتر عام ١٩٢٢ ، والتى اظهر فيها من النصوص القديمة عددا كبيرا ٠ وقد تخلف ريتر على هذه النشريات الاستاذ ديتريش ٠

ونذكر أيضا ان المعهد الالمانى للدراسات الشرقية فى بيروت اهتم بنشر النصوص العربية القديمة ، وبلغ مانشر حتى هذا العام خمسة عشر كتابا ٠

ولا بد أن نذكر ايضا ان كثيرا مما نشره الالمان لم يعد نشره حتى الان فى الشرق ٠ فهذا معجم البلدان سرقوا طبعة وستتقلد فى ايران بالتصوير ، وبصف الحروف فى بيروت ، وكذلك الكامل فى التاريخ لابن الاثير سرقوه عن الطبعة الالمانية تصويرا وطبعا ، وكذلك فعلوا فى طبقات ابن سعد ٠ وهذه الاشارة دليل على فضل الالمان الكبير ، فما زلنا عالة عليهم ٠

ب ـ والامر الثانى الذى خدم فيه الالمان العرب هو فهرسة المخطوطات العربية الموجودة فى مكتبات مختلفة من العالم ٠ ولعل اعظم ما قاموا به فى الفهرسة : فهرس مخطوطات برلين الذى وضعه الورد فى عشرة مجلدات كبار ، فيها ما يقرب من عشرة الاف مخطوط وكان عملا جبارا ٠ وهناك عشرات من الفهارس المفردة وضعها اخرون مثل فلوجل ، وفلايشر ، وبروكلمن ، وسيبولد ، وهرمن ، وغيرهم ٠

جـ ـ والامر الثالث هو الدلالة على اماكن المخطوطات العربية فى العالم لرجوع الباحثين اليها ٠ واعظم ما قاموا به فى هذا الباب كتاب العلامة بروكلمن فى تاريخ الاداب العربية ٠ فهو بنيان ضخم جبار ، وهو فخر للاستشراق الالمانى ٠ وسيبقى ، رغم نقصه ، مرجعا لكل باحث فى العالم لعشرات من السنين ٠

وقد عكف العلامة ريتر طوال ربع قرن على دراسة مخطوطات استانبول ، وعرف بها فى المجلات الاستشراقية ٠ وكان مرجعا فى المخطوطات العربية نادر المثال ٠ وقد امد الطبعة الاخيرة من كتاب بروكلمن بكثير من التصحيحات والاضافات ٠

د ـ والامر الرابع هو المحاولات لوضع معجم تاريخى للغة العربية٠ كان فرايتاغ (مات سنة ١٨٦١) قد وضع معجما عربيا ـ لاتينيا ، وجاء نولدكه فوضع معجما للغة العربية الفصحى ، نشره ورتبه كريمر

(برلين ١٩٥٢ ـ ٥٤) ، ووضع الاستاذ هانس فير معجمه العربي ـ الالماني الذى قصره على اللغة العربية المستعملة فى عصرنا • لكن المحاولة العظيمة هي محاولة الاستاذ فيشر المتوفى سنة ١٩٤٩ ، الذى وضع جذاذات بلغت الالوف لمعجم اللغة العربية مرتبة على المصادر التاريخية ، فهو معجم يدل على تطور معاني الالفاظ العربية تاريخيا ، وقد قضى في جمعه اكثر من اربعين عاما • ولم تعمل مثل عمله المجامع العلمية العربية كلها •

٤ ـ وننتهى الى الميزة الرابعة من مزايا الاستشراق الالماني ، وهى المنهج العلمي الدقيق • الذى يعتبر عند بعض المستشرقين مثالا نادرا يحتذى •

لست انكر ان فى نتاج بعض المستشرقين نقصا او اغلاطا • ولكن اى عالم هو الكامل • لقد عملوا بقدر ما اسعفتهم به المعرفة والمصادر ، والمخطوطات والوقت • ولقد استدرك بعضهم على بعض ، وصحح بعضهم اخطاء بعض • وكانوا علماء حقا يقبلون كل تصحيح ونقد •

تلك هى نظرة على ماضى الاستشراق الالماني •

فلنر الان حاضره ، وما يمكن أن يكون عليه فى المستقبل •

ان المتتبع لحركة الاستشراق الالماني يلاحظ انه اصيب منذ الخمسينات بالضعف ، شانه فى ذلك شأن الاستشراق فى البلاد الاوربية ، ولكن الاسباب مختلفة ، ويعود السبب فى رأيى الى :

١ ـ ليس فى المانيا ـ على ما يبدو ما يشجع الطلاب على التخصص بالعربية • لان كراسى اللغة العربية فى الجامعات محدودة • وقد لا يجد المتخصصون منهم اماكن للتدريس ، ولا يؤخذ الا المتفوقون منهم ، فقلت الحماسة والحرارة للتخصص بالعربية • اصبح الهدف من التعلم المال ، لا العلم نفسه •

٢ ـ قل الانتاج الاستشراقى قلة ملحوظة ، فبعض المستشرقين الذين تجاوزوا الخمسين والستين ، لا ينتجون الا القليل ، وبعضهم اكتفى بكتاب عربى نشره ، او بعض مقالات اظهرها • والشباب الجدد ، لم تهيأ لهم الفرصة المشجعة للعمل واتقان العربية جيدا ، ومعرفة المصادر ، ليستطيعوا الانتاج المتواصل الجيد • حتى ان بعض المشروعات فى نشر المخطوطات التي بدىء بها منذ زمن طويل لم تنجز يكفى ا ننذكر ان الوفيات الذى بدىء فى تحقيقه فى الثلاثينات لم يطبع منه سوى تسعة أجزاء • ولو كان وستنفلد حيا لانجزه كله وحده •

٣ ـ وكذلك قلت الاستفادة من دراسات المستشرقين الالمانية فى

البلاد العربية لان مثقفي العالم العربي يجهلون على الاغلب اللغة الالمانية فلا يقرأون نتاج الاستشراق الالماني الجيد الذي صدر هذا القرن والقرن الماضي . وما يعرفونه هو ما اتيح ترجمته الى العربية بواسطة الذين درسوا في المانيا وهذا قليل ولا يعطي فكرة عن متانة الدراسات الاستشراقية الالمانية .

فاذا لم يجد الاستشراق الالماني حلا لهذه المشكلات الثلاث ، فانه سينتهي الى عهد انحطاط .

واعتقد ان العالم العربي يمكن ان يسهم في حل هذه المشكلات .

١ ـ فالاقبال على تعلم العربية في المانيا يجب ألا يستهدف التدريس في الجامعات فقط . لان صلات الجمهورية الاتحادية الالمانية بالعالم العربي تتطلب الاهتمام اكثر بتعلم العربية، وخاصة للدبلوماسيين الذين يرسلون الى البلاد العربية والاسلامية .

لقد لاحظت دائما أن الدبلوماسي الالماني عندما يتكلم مع اهل البلاد العربية بلغتهم يكتسب عطفا ومعونة اكثر ويستطيع ان يفهم امور الشرق رأسا بلا واسطة ، وأن يكتسب عددا اكبر من الاصدقاء . فاذا تقرر هذا المبدأ فسيكون هناك مجال لتوسيع الدراسات العربية في الجامعات ، وبالتالي ايجاد اماكن للمستشرقين الشباب . كما ان جامعات البلاد العربية يمكنها الاستعانة بهؤلاء المستشرقين . ولقد درس في جامعة القاهرة بعض المستشرقين الالمان وتركوا اثارا طيبة .

٢ ـ ان قلة الانتاج الاستشراقي، يمكن التغلب عليها بالمشاركة في العمل مع العلماء العرب ، هذه المشاركة كانت معدومة عند المستشرقين الالمان في القرن التاسع عشر ، ولكنها اصبحت ممكنة اليوم . وفي مثل هذه المشاركة نوع من التكامل ، وتؤدي الى النشاط في الانتاج . لان العالم الالماني الشاب ، والعالم العربي يكمل كل منهما نقص الاخر . ولا شك أن العمل الفردي بالنسبة للمستشرق الناشيء ، وحتى الكهل احيانا ، لا يخلو من مخاطر . فاذا زاد تعاون العلماء الالمان مع العلماء العرب ، كان ذلك بداية عهد علمي استشراقي جديد ومثمر .

٣ ـ ان الاستشراق الالماني مقصر في التعريف بنفسه . ولا بد من نقل احسن الدراسات الاستشراقية الالمانية الى العربية بانتظار الوقت الذي يعرف فيه جميع المثقفين العرب الالمانية ويقول بعض المستشرقين الالمان : اذ هذه الترجمة يجب ان يقوم بها العرب . هذا صحيح ، ولكن هناك صعوبة تعترض عملهم . فليس هناك دليل لاحسن ما كتبه المستشرقون وما هو جدير بالترجمة ، او تعريف بالمستشرقين الالمان وجهودهم . وان كانت مجلة « فكر وفن » تقوم بمثل هذا العمل على نطاق ضيق من حين الى حين . فلا بد اذن ـ هنا ايضا ـ من التعاون بين المستشرقين الالمان والعلماء العرب . سواء في الاختيار ، او الترجمة او المراجعة بعد الترجمة .